الفصل السابع والعشرون

المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية

سبق أن حصرنا الاتجاهات المحلية فى مصر أمام الزحف الحضارى الغربى فى ثلاثة اتجاهات :

الأول : الرفض المطلق ، وكان يمثله الأزهر الشريف .

الثانى : القبول المطلق ، وحمل لواءه الدكتور طه حسين ، وكان له رفاق آخرون ، إلا أن الدكتور طه كان رائد ذلك الاتجاه .

وقد تحدثنا عن هذين الاتجاهين بما فيه الكفاية .

أما الاتجاه الثالث فقد عبَّرنا عنه فيما تقدَّم بأنه : القبول المشروط . وعبَّرنا عنه هنا بـ « المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية » . وهذه التسمية هى الأولى بالاعتبار . لذلك آثرناها هنا . وهى قريبة الشبه جداً من معناها باتجاه القبول المطلق ؛ وإن كان هذا الاتجاه الثالث قد أحدث فى الإسلام شرخاً ما يزال يتسع ويدمى ، وهو مسئول تاريخياً عما أصاب الإسلام فى مصر من تراجع وانزواء ، وبخاصة فى الجوانب التشريعية والأخلاقية ، وهذا ما كان يسعى من أجله الاستعمار وعملاؤه من المستشرقين والمبشرين ، وعملاؤه من الداخل أو الوطنيون .

وكان لهذا الاتجاه دعاة يدعون إليه ، كما كان طه حسين ورفاقه يحملون لواء الدعوة إلى القبول المطلق لأنماط الحضارة الغربية ، ودعاة المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية كانوا - فيما نرى - أشد خطراً على الإسلام من الاتجاه الذى

كان يقوده طه حسين ؛ لأن اتجاه المواءمة مارس عمله بحرية من داخل الإسلام نفسه ، وكان أقدر على التمويه وإلباس الباطل ثوب الحق ؟!

فقد مارس أعضاؤه - فعلاً - تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وقدَّموا بين يدى عملهم كثيراً من المبررات ، وخلطوا عملاً صالحاً بآخر باطل ... وكان يساندهم الاستعمار إما جهرة أو من وراء ستار ؟!

ومن أبرز دعاة هذا الاتجاه - وهو أسبق وجوداً من الاتجاه الذى قاده الدكتور طه حسين - ما يمكن أن نسميه :

« مدرسة جمال الدين الأفغانى »

هذه المدرسة كان رائدها جمال الدين نفسه ، وقد تلقف مبادئه وأخلص لها اثنان آخران ، هما : الشيخ محمد عبده ، ثم الشيخ رشيد رضا .

والشيخان « جمال الدين » و « محمد عبده » لكل منهما سيرتان : ظاهرة شائع ذكرها بين الناس ، والأخرى يكتنفها كثير من الغموض ، فالظاهرة الشائع ذكرها أنهما مصلحان مجددان غيوران على الإسلام . والأخرى التى أحاط بها الغموض أنهما - وبخاصة الشيخ محمد عبده - قدَّما خدمات جليلة فى تحقيق أهداف الاستعمار ضد الإسلام ؟ سواء أكان الباعث على هذا حُسن النيَّة وسلامة القصد ، أم تعمد الإساءة والضرر ، وكنتُ قبلاً من المعجبين بهذه المدرسة وأعضائها ، وما كنت أصدِّق ما يقال عنها من سوء النيَّة أو حتى مجرد الخطأ فى بعض تصوراتها . ولكن الفرصة أتيحت لى فقرأت عنهما كثيراً من المراجع ، وما كتبه عنهما بعض العلماء من معاصريهما ، كما اطلعت على بعض التقريرات السنوية التى كان يكتبها المندوبون السامون للإنجليز فى مصر ، وكانت تلك التقريرات تثنى على مبادىء الشيخ جمال الدين الأفغانى ، وتُعلِّق عليها أمالاً عظيمة لمناصرة الحضارة الغربية ، كما أن الشيخ محمد عبده كان موضع حدب وتأييد من اللورد كرومر ، وبفضله اعتلى الشيخ محمد عبده مناصب دينية مؤثرة كتوليه الإفتاء فى مصر ثم القضاء ، ثم عضوية إدارة

المعاهد الأزهرية . ومن البديه أن الاستعمار لا يؤيد ولا يساعد إلا عملاؤه وأنصاره ، وكذلك فإن رأى المستشرقين فى أقطاب هذه المدرسة يتسم بالثناء والإعجاب والتقدير . فإن تكن لهم - أى للمستشرقين - مآخذ عليهم فهى محصورة فى تسجيل وقوفهم عند الحد الذى وقفوا عنده (؟!) يعنى أنهم كانوا يريدون منهم أكثر مما أعطوا الحضارة الغربية من نصر وتأييد على حساب قيم الإسلام وأصوله ومقاصده .

ومما زعزع الثقة فى هذه المدرسة أن بعض المصادر التى أتيح لى الاطلاع عليها - وهى تحت يدى الآن - فيها أسرار دقيقة ورسائل متبادلة بين الشيخ جمال الدين وبعض مريديه ، ثم رصد لبعض مواقف الشيخ محمد عبده ، وهى كلها تدل على أن الشيخين كان لهما ظاهر محمود وباطن مريب . أما الشيخ رشيد رضا فآثاره فى التجرؤ على الإسلام مسجَّلة فى تصانيفه ، ومنها فتواه التى تقدَّم ذكرها ، والتى قد احتال فيها على تأويل النصوص القرآنية القاطعة الدلالة بما يحيل النص المؤول إلى مجرد كلام معطل ، وكان الهدف من ذلك التأويل هو إباحة الحكم بغير ما أنزل اللّه سبحانه وتعالى ؟!

* *

● الاجتهاد المطلق :

إن الخطر والخطأ اللذين نجما عن هذه المدرسة - مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغانى - يعودان إلى أمرين :

أحدهما : أنها ادَّعت لنفسها حق الاجتهاد المطلق ، ومعنى هذا أن أقطاب تلك المدرسة افترضوا انقراض المذاهب الفقهية الأربعة وغير الأربعة ، فلم يتقيدوا بأصولها فى البحث والاستدلال ، وراحوا يستنبطون الأحكام من الكتاب والسُنَّة مباشرة . هذا الاتجاه كان سيكون محموداً لها لو أنها استخدمته فى الوقائع والحوادث الطارئة التى لم يرد فى مثلها نص قطعى الدلالة والثبوت . ولم يتقدم فيها اجتهاد مجمع عليه . أما توسيع الدائرة لاستخدامه فيما ورد فيه

نص ، أو سبق فيه إجماع . فهذا هو مكمن الخطورة ، ومصدر كل بلية أصيب بها المسلمون فى العصر الحديث . وما تزال الأخطار تتزايد فيه وتتفاقم .

والأمر الآخر : أن لأقطاب تلك المدرسة أعمالاً أخرى قدَّموها فى الدفاع عن الإسلام لا ينكرها إلا جاهل أو معاند ، فكل من الشيخ جمال الدين والشيخ محمد عبده وقفا من الفكر الاستشراقى مواقف نبيلة ، والشيخ جمال الدين كان له دور فى مقاومة الفكر الإلحادى من الدهريين والطبيعيين ، كذلك موقفه من القاديانية وكشفه لزيفها أمر معروف ومشكور ، والشيخ محمد عبده قام بنفس الدور فى الرد على التهم التى كان المستشرقون يوجهونها ضد الإسلام .

والشيخ رشيد رضا له مجلة « المنار » فى الشئون الإسلامية ، وله كذلك تفسير المنار . إذن فَصِلة هذه المدرسة بالإسلام على هذا النحو جعلهم مسموعى الكلمة ، لا يرتاب فيهم أحد . وهذه هى السيرة الظاهرة التى سوَّغت لجرأتهم على الإسلام قبولاً عند العامة ، ورضاً بما يصدر عنهم بلا مناقشة .

ومن المراجع التى تحدَّثت عن السيرة الغامضة لأقطاب هذه المدرسة كتابان يمكن الرجوع إليهما ، أحدهما كتاب « بلا يابوزا » لعالِم تقى ورع من علماء الأزهر ، كان رفيقاً للشيخ محمد عبده فى طلب العلم ، وهو من إقليم « البحيرة » التى ينتمى إليها الشيخ محمد عبده . ظهر هذا الكتاب عام ١٩٢٦ ، أما المؤلف فهو الشيخ محمد الجنبيهى .

والكتاب الثانى هو « شواهد الحق » للشيخ يوسف النبهانى من علماء الأزهر أيضاً ، وله صحبة بالشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، وقد ذكر فى كتابه هذا كثيراً من الأمور غير المعروفة عن مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغانى ، كما رصد أحوالها وسرد أسرارها فى قصيدة له اسمها « الرائية الصغرى » مطبوعة ضمن ديوانه « العقود اللؤلؤية » [١] .

---

(١) انظر : الإسلام والحضارة الغربية للمرحوم محمد محمد حسين .

وها نحن أولاء نكتفى بما خف ذكره مما ورد عن الشيخ يوسف النبهانى فى وصف مدرسة الشيخ جمال الدين ومريديه ليتبين القارئ خطر هذا الاتجاه الذى تبنته تلك المدرسة ، ومدى صلته بالهدف الاستعمارى الذى تقدَّم ذكره مرات ، وهو : تطوير الإسلام ، وإعادة تفسيره .

يقول الشيخ يوسف النبهانى فى كتابه « العقود اللؤلؤية » (ص . . ٤) ما يأتى : « واعلم أن هؤلاء ... يدَّعون الاجتهاد المطلق ، واستنباط الأحكام من الكتاب والسُنَّة ويرفضون المذاهب الأربعة ..... وصارت أحكام الدين عندهم كل ما خطر ببالهم ، ووافق أغراضهم ، وجرى على ألسنتهم من الألفاظ المنمقة ، والمعانى الملفقة التى تلقفوها من مقالات الفلاسفة وكتاب الإفرنج مما لا يوافق دين الإسلام » .

ويقول : « إن هؤلاء ... قد مشوا ببدعتهم على أثر البروتستانت من النصارى الذين يدَّعون إصلاح دين النصرانية ، بتركهم العمل بأقوال أئمتهم السابقين ، والاقتصار على ما فى التوراة والإنجيل من أحكام الدين ، وقد أخطأ هؤلاء ... بتقليد أولئك الأقوام ، لأن ما زاده أئمتهم على التوراة والإنجيل ليس له أصل فيهما .. أما أئمة الإسلام فلم يزيدوا على الكتاب والسُنَّة شيئاً من عند أنفسهم ، بل جميع أحكام المذاهب الأربعة مأخوذة من صريح الكتاب والسُنَّة ، وهو أكثر الأحكام ، أو مستندة إلى الإجماع الذى هو مستند إليهما ، أو إلى أحدهما - أى الكتاب والسُنَّة - أو مستندة إلى القياس الصحيح عليهما أو على أحدهما ، فليس هناك حكم فى المذاهب الأربعة خارج عن الكتاب والسُنَّة من كل الوجوه ، ولا يمكن أن يستعملوا القياس إلا إذا لم توجد آية أو حديث يصلح للاستدلال » .

هذا .. وقت أخذ الشيخ يوسف النبهانى على زعماء مدرسة الأفغانى مأخذين كبيرين فيما يتعلق بتطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وهما :

الأول : دعوى الاجتهاد المطلق مع إنعدام الكفاية العلمية فيهم وعدم حفظهم للقرآن الكريم وسُنَّة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم .

والآخر : حطهم من أقدار الأئمة الأعلام من فقهاء المسلمين ، وإعلاء أقدار أئمة النصارى البروتستانت [1] ، والاقتداء بهم فى ما ادعوه من إصلاح دينى لِملّتهم ، وبالمجامع الدينية الكَنَسية التى أفسدت رسالة عيسى عليه السلام .

وفكرة إحياء الاجتهاد المطلق كان أول مَن ابتدعها الشيخ جمال الدين ولقنها لتلاميذه ومريديه ، وكان من قبل يُسِرُّها فى نفسه ، ولما التقى به الشيخ محمد عبده ورفاقه أذاع فيهم هذا السر ، ورغَّبهم فيه مدَّعياً أن الاجتهاد الحر أو المطلق سيعيد الإسلام بِكراً غضاً . وفى ذلك يقول الشيخ يوسف النبهانى فى قصيدته « الرائية الكبرى » التى يبلغ عدد أبياتها ٥٥٣ بيتاً . يقول الشيخ النبهانى فيها مسجلاً هذا الحَدَث :

وحـين أتاه ذلك الحين عبده ... وأمثاله أفشـى لهم ذلك السرا

أسرَّ لهم محو المذاهب كلها ... ليرجع هذا الدين فى زعمه بكرا

* *

● الثنائية :

مَن يقف على سيرة زعماء المدرسة الأفغانية (جمال الدين الأفغانى ومريديه) تبدو أمامه ظاهرة مؤكدة ، وهى الثنائية فى الاتجاهات والأعمال ثنائية تذبذب بين خدمة الإسلام والتجرؤ عليه . وهذه الثنائية ظاهرة بوضوح فى مواقف الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا . وهذا ما يدعو الناظر فى سيرتهما إلى تلمس تفسير مقبول لفهم هذه الثنائية ذات الطرفين المتنافرين :

---

(١) البروتستانت : كلمة يونانية معناها المعارضة والاحتجاج ، وهى حركة قامت فى مواجهة المذهب الكاثوليكى فى الغرب . انظر : الأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد وافى .

● ما قبل النفى وبعده :

وقد يُعين على فهم الثنائية فى سلوك الشيخ محمد عبده ، أن أعماله التى كان فيها دفاع مخلص عن الإسلام كانت قبل عودته من منفاه الأخير ، أما بعد عودته من المنفى ، وتوطيد العلاقة بينه وبين الإنجليز فى مصر حيث كان يمثلهم اللورد كرومر ، فقد اتجه الشيخ محمد عبده اتجاهاً جديداً هو : العمل على تطوير الإسلام والمواءمة بينه وبين الحضارة الغربية . هذه الملاحظة جديرة بكشف الغموض فى حياة الشيخ محمد عبده . وسوف نذكر بعض مظاهر توطيد العلاقة بينه وبين « اللورد كرومر » و « المستر بلنت » الوسيط بينهما فى أول الأمر .

أما الشيخ رشيد رضا فقد تأثر بالشيخ محمد عبده فى هذه الفترة التى تَبَنَّى فيها تطوير الإسلام والمواءمة بينه وبين الحضارة الغربية فجعل همه مثل همه . فتفسير الثنائية فى سلوك الشيخ محمد عبده هو فى نفس الوقت كشف وإيضاح لثنائية الشيخ رشيد رضا .

* *

● علاقة الشيخ محمد عبده بالإنجليز :

توطدت علاقة الشيخ محمد عبده بالإنجليز فى مصر بعد عودته من المنفى واستقرار المقام به فى مصر . هذه حقيقة لا يرتاب فيها أحد . وقد قامت عليها عشرات الأدلة من الواقع ، ومن التقريرات التى كان يقدمها المندوبون السامون الإنجليز ، عن مصر إلى حكومة إنجلترا ، وقد أشرنا من قبل إلى أن « مستر بلنت » ، وهو رجل إنجليزى ذو دهاء شديد ، كان الواسطة بين الشيخ محمد عبده ، وبين « اللورد كرومر » ، وقد منح محمد عبده قطعة أرض بضاحية عين شمس بنى عليها الشيخ محمد عبده منزلاً له قريباً من منزل « مستر بلنت » . ثم اتخذه « اللورد كرومر » مستشاراً له فيما يتصل بسياسة الإنجليز فى مصر ، وكان يدعوه : شيخه (؟!) وفى إطار هذه العلاقة الوطيدة سعى « كرومر » لتعيين الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية فى ٣ يونيه عام ١٨٩٩ .

وكان هدف « كرومر » أن يُمكِّن محمد عبده من التدخل فى شئون الأزهر وهو فى هذا المنصب الرفيع ، وقد أنجز الشيخ محمد عبده هذه المهمة ، وإذا كان ما سمى بإصلاح التعليم فى الأزهر الذى كان وراءه الشيخ محمد عبده بعض الصواب ، فإنه صواب اتُخذَ مطية وتكأة إلى كثير من المآخذ والسلبيات ، حيث أحدث فتنة برّاقة لعلماء الأزهر الذين نشأوا فى ظل ذلك الإصلاح ؟!

فقد سلك تلاميذه ومريدوه مسلكاً ذكياً فى تحقيق مطالب الشيخ محمد عبده فى الأزهر ، متبعين فى ذلك خطة تقوم على : التفريغ والملء . فى جانب التفريغ قاموا بحملة تشويه للأزهر شملت علماءه وطلاّبه ، ويكفى أن يعود القارىء إلى كتاب الشيخ رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام » [1] ، ليرى بعينه مقالة مطوّلة كلها وصف مزر للأزهر يُكرِّه الناس فيه وفى علمائه وطلاّبه والعلوم التى يقوم عليها ، كما ذكر رشيد أن الشيخ محمد عبده كان يحتقر كل مَنْ فى الأزهر الا نفراً قليلاً ، وكان يسب الأزهر فى مجالسه الخاصة بثلاث كلمات ، فيصفه مرة بأنه : المخروب ؟ ومرة بأنه الاصطبل ؟ وثالثة بأنه المارستان ؟!

وبعد هذا نالوا من الأزهر ما نالوا . وعملوا جاهدين على إحلال « العقلانية » محل اتباع سَلَف الأمة ، والعبث بالنصوص وتأويلها على مخارج غير صحيحة . والمقام يضيق عن ذكر المساوىء التى قذف بها الأزهر الشيخ محمد عبده وتلاميذه من بعده ، لذلك فإننا نذكر ما يؤيد ما نقوله عن هذه المدرسة وحقيقة منهجها فى الفترة الأخيرة من حياة الشيخ محمد عبده (بعد العودة من المنفى) ثم سلوك تلاميذه من بعده .

يقول المستشرق « جب » الذى مَرَّ ذكره مرات فى هذه الدراسة ، وهو يصف منهج تلاميذ الشيخ محمد عبده :

« وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون حتى فى حياته يظهرون بمظهر

---

(١) الجزء الأول ، ص ٤٩٥ - ٤٩٧

واضح صريح ، وقد كان هو نفسه فى مادة العقيدة يعارض قبول كل شئ دون مناقشة - أى يعارض التقليد كما يقال فى الإسلام ؟! وهذا الرأى يعتبر لبنة - يعنى دعامة - فى بناء الحركة المتمدنة ، أو خشية الخلاص فى الحركة العلمانية » .

ويقول كذلك : « إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التى أنشئت إنشاءً أوروبياً ، وينضمون للحلقات العلمانية (!) .. ومن ناحية أخرى نجد الشيخ محمد عبده قد صنع جسراً فوق الهوة التى تفصل التعليم التقليدى من التعليم العصرى الخاضع لمذهب العقليين الذى غزا الشرق من الغرب » ؟

ومعروف من تاريخ أوروبا الحديث أن المذهب العقلى كان يقوم على : إما فصل الدين عن الدولة فى أخف نظرياته ، وإما على الإلحاد وإنكار الدين كما كان يروِّج له « ڤولتير » و « چان چاك روسو » قبل قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وقد تأثر بمنهج الشيخ محمد عبده كثير من شغلة المناصب فى مصر ، ومن حملة الأقلام ، وقادة الفكر ، والأدباء مثل : الشيخ أحمد إبراهيم ، وحافظ إبراهيم ، ومحمد كرد على ، وأحمد فتحى زغلول ، ورفيق العظم ، وقاسم أمين ، وعبد العزيز جاويش [١] .

ويعترف الشيخ رشيد رضا بأن شيخه - محمد عبده - كان فعلاً يتولى المواءمة بين الإسلام والحضارة الغربية ، فيقول :

« وكانت جرأته فى الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ومعارضته علماء الأزهر فى عصره سبباً فى كثير من الحملات التى خاضت فيها الصحف ، متهمة إياه بتسخير الدين لخدمة العدو الغاصب » [٢] .

فالشيخ محمد عبده ذو فكر متمرد على كل شئ . وفتاواه تشهد بذلك . ومَنْ

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ١/٧٦٩ - ٧٧٢ (٢) المصدر السابق : ١/٥٧١ - ٥٨٩

شاء فليراجعها فى الكتاب الجامع الذى وضعه عنه تلميذه رشيد رضا .. ونستعيض من ذكر فتاويه وسقطاته بعبارة تريك أن الرجل هوى فيها إلى الحضيض وكشف عما فى نفسه درى أو لم يدر . قال العبارة التى سنذكرها وهو يدعو الناس إلى كتب المستشرقين والمبشِّرين من أعداء الإسلام . فزيَّنها لهم ورغَّبهم فى مطالعتها قائلاً بالحرف الواحد :

« هى بحوث متحررة لا تصدر عن تقديس للإسلام ، أو توقير للسابقين المقدَّمين من رجاله » ؟! [1] .

إن هذه العبارة - وهى صحيحة السند إلى الشيخ محمد عبده ، لأن راويها أخلص تلاميذه الشيخ رشيد - هذه العبارة هى الكلمة المفتاح التى تطلعك على خبايا محمد عبده وخفياته ، وهى تريك إلى أى مدى وقع الرجل فى قبضة أعداء الإسلام وسخَّر أخريات حياته للتشفى منه والإزراء عليه ؟!

لا جَرَم أن يحدب عليه « كرومر » ، ويُنعم عليه بالمناصب من الإفتاء ، وتولى القضاء ، واتخاذه مستشاراً خاصاً له ، وعضواً بإدارة الأزهر ، ورئيساً للجنة التى خططت لإنشاء مدرسة القضاء الشرعى على خلاف الأحكام الشرعية ليكون مسموع الكلمة ، مقبول الرأى ، له تأثير على جمهور الشعب وعامة المسلمين ، وليحمل تلاميذه من بعده نفس الرسالة فيوزعوا أنفسهم على أدوار مختلفة كلها تنتهى إلى غاية واحدة هى : تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ، وإفساح المجال للحضارة الغربية فى مصر .

توفى الشيخ محمد عبده فى ١١ يوليو عام ١٩٠٥ ولكن فكره وفكر شيخه جمال الدين لم يمت كما مات الأستاذ والتلميذ . بل ظل محمولاً على كواهل مريديهما وتلاميذهما . وقد وزَّع هؤلاء التلاميذ أنفسهم على أدوار كان كل دور منها مقصوراً على مساحة معيَّنة من النشاطات ، التى تهدف فى النهاية إلى المحور

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ٩٢٧/١

الأساسى الذى رسمه الاستعمار الإنجليزى تجاه الإسلام والمسلمين ، وهو : تطوير الإسلام وإعادة تفسيره بما يجعل الأبواب مفتوحة على مصاريعها لزحف الحضارة الغربية على مصر ، وفرض سيطرتها على واقع الحياة فيها .

منهم مَن اتجه إلى تفسير القرآن ، ومنهم مَن اتجه إلى فصل الدين عن السياسة ، ومنهم مَن اتجه إلى نظام الحكم فى الإسلام وإبطال الخلافة والجهاد (؟!) ومنهم مَن اتجه إلى الفتاوى المطورة (؟!) ومنهم مَن اتجه إلى شئون المرأة ، ومنهم مَن اتجه إلى تطوير التعليم وهكذا . وقد مكّنهم من تحقيق مآربهم التحاقهم بالوظائف المهمة والمراكز القيادية فى كل مكان . وقد واكب هذه الظاهرة ظاهرة أخرى مساعدة لها ، وهى إقصاء رجال الأزهر وعلماء الدين عن المواقع المؤثرة فى الرأى والتوجيه والحكم والإدارة . فكانت الطامة الكبرى .

ونعرض فى السطور الآتية الآثار السيئة لتلاميذ هذه المدرسة والبلايا التى نجمت عنها حتى الآن :

● أعمال غير مشهورة :

وأعمال تلاميذ مدرسة التطوير للإسلام وإعادة تفسيره يمكن تصنيفها فى مجموعتين :

إحداهما غير مشهورة ؛ لأنها كانت تأخذ شكل المقالات فى الصحف والمجلات .

والأخرى مشهورة ؛ لأنها سُجِّلت فى كتب ومؤلفات ؛ ولأنها قد صاحبتها موجة من الاحتجاجات والإجراءات ضمنت لها الشهرة ، وأن كتابات أخرى دارت حولها وتدور إلى الآن إما معجبة بها - وهو الغالب ، وإما مفندة لها كاشفة عما فيها من زيف . ونوجز الحديث عن الأعمال غير المشهورة قبل الأعمال المشهورة ؛ لأنها - أعنى المشهورة - فى حاجة إلى تبصر أكبر واهتمام أبين .

* *

● مجلة الهداية :

أنشأ هذه المجلة الشيخ محمد عبد العزيز جاويش أحد تلاميذ محمد عبده عام ١٩١٠ ، وجعلها لسان مقال مدرسة التطوير وإعادة تفسير الإسلام ، يكتب فيها هو وآخرون من تلاميذ الشيخ محمد عبده . وكذلك قد أفسحت المجلة صدرها لنماذج مترجمة من فكر الغرب وثقافته ، وحرص عبد العزيز جاويش أن يجعل فى كل عدد من المجلة مقالاً له فى تفسير القرآن الكريم على منهج محمد عبده نفسه ، أما الآخرون فكانوا يكتبون مقالات إسلامية الهدف منها التقريب بين الإسلام وحضارة الغرب على حساب الإسلام طبعاً .

ومما روّج له عبد العزيز جاويش فى مقالاته المشار إليها الذهاب إلى صدق نظرية « داروين » فى التطور ، وهى نظرية إلحادية تزعم أن الطبيعة هى الخالقة لما بين السموات والأرض (؟!) ويزعم الكاتب أن السَلَف الصالح من المسلمين (الرعيل الأول) كان يؤمن بهذه النظرية ، ولكنهم كانوا يخفونها عن العوام من الناس (؟!) وأن فريقاً من السَلَف كان يسميها « دائرة الوجود » ، وأهل السُنّة والمعتزلة كانوا يسمونها « القضاء والقدر » (؟!) وفى القرآن يسمى : بـ « الميزان » (؟!) ثم انتهى إلى أن نظرية « داروين » لا تنافى الإيمان باللّه ؟! وهذا افتراء على اللّه ورسوله قد افتراه الكاتب . ومعلوم يقيناً أن نظرية « داروين » كانت إحدى الدعامات التى قامت عليها « العلمانية » التى تُنكر وجود اللّه وتُنكر الرسالات السماوية كلها [١] ؟!

* *

● التقريب بين الأديان :

ومما دعا إليه فى تفسيره للقرآن الكريم ما يسمى الآن بالتقريب بين الأديان ، بُغية تطوير الإسلام والذهاب بعقائده أدراج الرياح فعند تفسيره لقوله تعالى :

---

(١) الهداية عدد أكتوبر ١٩١٠ .

وراجع إن شئت : الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة : نشر مكتبة وهبة . للمؤلف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) يقول الكاتب :

« وما كان اللّه ليظلم هؤلاء ليهوديتهم ، ولا أولئك لنصرانيتهم إلا إذا أشركوا به غيره ، أو أنكروا اليوم الآخر ، أو هجروا صالحات الأعمال » ؟! (٢) .

ويمضى الكاتب فيوقع فى روع الناس أن الإيمان المنجى هو ما اشتمل على توحيد اللّه ، والإيمان بالآخرة ، ثم العمل الصالح ، أما الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ فلا أثر له فى هذا الإيمان الجديد (؟!) وهو يتعمد قصداً مخالفة المفسِّرين ليوسع من دائرة الإيمان ، ويُعْفى اليهود والنصارى وغيرهم من التصديق بالإسلام الذى يقول اللّه فيه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٣) فيقول :

« ولقد خالفنا المفسِّرين فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ .. ﴾ ويحتال بعد ذلك على دعم رأيه مجترئاً على كل القواعد والأصول . والهدف إقرار اليهود والنصارى على ما هم عليه من تكذيب بالإسلام ، وإنكار لرسالة خاتم الرسل صلى اللّه عليه وسلم ، ولا نزاع أن هذا تطوير وإعادة تفسير للإسلام على النحو الذى خطط له المستعمرون ؟!

* *

● إهدار قيمة النصوص :

كما دعا عبد العزيز جاويش إلى إهدار قيمة النصوص مطلقاً ، حتى لو كانت تلك النصوص قطعية الدلالة والثبوت ، فضلاً عن دعوته لإلغاء الأحكام

---

(١) البقرة : ٦٢ (٢) الهداية عدد فبراير ومارس ١٩١٢ (٣) آل عمران : ٨٥

الاجتهادية واتهامه لها بالقصور عن مراعاة المصالح العامة . وفيها يقول بالحرف الواحد : « إن من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية ، التى قررها نفر من أهل العلم دون رعاية للمصلحة العامة ، التى هى أصل من أصول الشرع الشريف » [١] .

أما فى إهدار النصوص فيقول : « وقد سَنَّت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة ؛ حتى لا يكون على الناس حَرَج ولا ضرار . بل رخَّصت أن يُعْدَل عن النص إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول ، وكانت المصلحة التى تنتج عن هذا النص أقل مما ينتجه هذا العدول » [٢] .

هذا الذى يدعو إليه الكاتب هو بعينه التطوير الذى دعا إليه الاستعمار للإسلام ، وإعادة تفسيره حتى يذوب الإسلام ، ويصير ألعوبة فى أيدى ذوى الأهواء من عملائه .

هذه شذرات من الأعمال غير المشهورة لتلاميذ محمد عبده ، وبقى منها الكثير والكثير مما نُشِر إما فى الهداية ، أو المقطم ، أو مجلة الهلال ، أو سجَّله رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام . وبعضهم كان يسخر من علماء الدين أو من الدين نفسه ، مثل ولى الدين يكن الذى كان يفطر عياناً فى نهار رمضان ، ويسخر من سُنَّة الأضحية التى يتقرب بها المسلمون إلى ربهم فى عيد الأضحى ، ويتساءل قائلاً :

« ما هذا الإسراف ؟ ألنا ثأر عند الغنم .. ؟! ما روى لنا أحد المؤرخين أن جد الغنم نطح أبانا آدم فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب » ؟! [٣] .

إنه كان يقوم بنفس الدور الذى كان يقوم به « ڤولتير » من السخرية بالدين فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وڤولتير كما تقدم كان من دعاة الفكر الإلحادى

---

(١) الهداية عدد مايو ١٩١١ (٢) نفس المصدر السابق .

(٣) الصحائف السود ص ٨٢ - ٨٣

العلمانى . واقرأ إن شئت فصلاً مسهباً عنه وعن فكره فى كتاب « قصة الفلسفة » لـ « ول ديورانت » .

* *

● تقديم العقل على النقل :

واضح مما تقدَّم أن تلاميذ الشيخ محمد عبده - كما أشار « جب » من قبل - كانوا يرون للعقل أولوية على النقل ، والنقل هو النصوص الشرعية وفى مقدمتها القرآن الكريم وأحاديث خاتم الرسل صلى اللّه عليه وسلم . وهذا هو مكمن الخطر . وهم فى هذا يسيرون سيرة أستاذهم تماماً . وليس فى هذا افتراء على أحدٍ منهم ، ولا على شيخهم . فإن كتاب رشيد رضا « تاريخ الأستاذ الإمام » وهو يروى وقائع حياة محمد عبده خير دليل على ما نقول من أن محمد عبده نفسه هو صاحب هذا المذهب « العقلى » المقدَّم على النصوص الشرعية .

وإذا كان فى الرجوع إلى « تاريخ الأستاذ الإمام » صعوبة فأمام القارىء مراجع ميُّسرة يمكنه الرجوع إليها كتبها معجبون بالشيخ محمد عبده لا خصوم معارضون . ومنها :

« محمد عبده » للمرحوم عباس محمود العقاد من سلسلة أعلام العرب .

و « الإمام محمد عبده » للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى . نشر دار المعارف بمصر .

و« الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للمرحوم الدكتور محمد البهى . نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

« تفسير المنار » لرشيد رضا .

* *

● نصوص من كلام محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل :

وإسهاماً منا فى مساعدة القارىء على استجلاء الحقائق نضع بين ناظريه نصوصاً من كلام محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل . وله أن يكتفى بها أو يطلب المزيد من المراجع التى أشرنا إليها من قبل . والسبب فى اختيارنا نصوصاً له فى صلة الوحى بالعقل ؛ لأن تلك الصلة - كما يرى محمد عبده - هى مفتاح السر فى فكره كله . فهى الأصل ، وما عداها تطبيقات لها كيفما كانت . وفى إيجاز شديد نقول : إن مذهب محمد عبده كان يقوم على إخضاع الوحى للعقل (؟!) وإليك الأدلة من كلامه :

« فقد أمر الكتاب - يعنى القرآن - بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ إليه من دقائق تحصيلاً لليقين فيما هدانا إليه . ونهانا عن التقليد بما حكى من أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم . فالتقليد مضلة يُعذر فيها الحيوان ، ولا يجمل بحال الإنسان » (١) .

هذا الكلام قد يبدو بريئاً . ولكن النظر الدقيق فيه يكشف عن مخاطره وخفاياه ، فقد قاس محمد عبده اتباع المسلمين لسَلَف الأمة على أمر مُجْمَع على بطلانه ، وهو ما حكاه القرآن من تقليد الأمم الغابرة لآبائهم فى الإشراك بالله ، والإقامة على المعاصى . فخذ إليك مثلاً قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٤) ؟!

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٥
(٢) الأعراف : ٢٨
(٣) المائدة : ١٠٤
(٤) البقرة : ١٧٠

هذا هو بعض ما حكاه القرآن الأمين من تقليد الأمم لآبائهم . إنهم جعلوا الإشراك باللّه الموروث عن آبائهم ، وفعل الفواحش بديلاً عما كانت الرسل تدعوهم إليه . هذا هو التقليد الذى نهى عنه القرآن . أما التقليد فى كلام محمد عبده ، وفى دعوات تلاميذه من بعده فهو : اتباع الأمة لكتاب اللّه وسُنّة رسوله ، والفقه الذى استنبطه الأئمة الأعلام من كتاب اللّه وسُنّة رسوله ، وسيرة خلفائه الراشدين . ولذلك دعت هذه المدرسة - شيوخها وتلاميذهم - إلى الاجتهاد المطلق ، وإلغاء المذاهب الفقهية التى تلقتها الأمة بالقبول والرضا ، واطمأنت إليها قلوبهم ، وأجمعت الأمة على العمل بها فكان ذلك من علامات رضا اللّه عنها .

وقد عبّر المرحوم الدكتور محمد البهى عن رأى الشيخ محمد عبده فى صلة الوحى بالعقل بأن محمد عبده يرى أن « طبيعة الوحى يجب أن توافق طبيعة العقل الإنسانى » ؟! [١] .

وفى موضع آخر يقول : « وفى توضيحه صلة العقل بالوحى ، أو صلة رجال العقل برجال النص فى الجماعة الإسلامية ، يرى الشيخ محمد عبده ما رآه ابن رشد فى القرن السادس الهجرى ، وما رآه ابن تيمية فى القرن الثامن من قرون الهجرة من أن الوحى يجب أن يتفق مع العقل » [٢] .

*

● ملاحظتان :

ولنا على كلام الدكتور البهى ملاحظتان مهمتان :

إحداهما : أنه فى الموضعين اللذين حكى فيهما رأى محمد عبده فى صلة العقل بالوحى قال : « إن الوحى يجب أن يتفق مع العقل » . ومعنى هذا أنه يرى خضوع الوحى للعقل . وهذا هو الخطر والخطأ الجسيم فى فكر محمد عبده

---

(١) الفكر الإسلامى ص ١٥٩ (٢) نفس المصدر ص ١٥٦

وتلاميذه ؛ لأن الأصل هو خضوع العقل للوحى ، سواء أريد بالوحى المعنى الاصطلاحى (القرآن) أم أريد به ما هو أعم من المعنى الاصطلاحى (القرآن ثم الحديث الشريف القطعى الثبوت) .

وإذا كان رأى محمد عبده ومدرسته هو ما حكاه الدكتور البهى . فإنه لا يصح تشبيه رأى محمد عبده بما ذهب إليه كل من ابن رشد وابن تيمية . وهذا هو المدخل إلى :

الملاحظة الثانية : إن ابن رشد ، وابن تيمية لم يريدا ما أراده محمد عبده . لأن ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والعقل من الاتصال » ، وابن تيمية فى كتابه « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » كان عملهما أن يبيِّنا أن لا خلاف بين نصوص الشريعة الصحيحة وبين أحكام العقل الصريحة . والبون شاسع كما ترى بين رأى محمد عبده ، وبين مذهب الإمامين الجليلين : ابن رشد وابن تيمية ؟!

* * *